

أخلاق المولى محمد مؤمن الشيخ محمد بن عبد الغفور الملقّب بـ(مؤمن) (حيّاً: ١١١٩ هـ)

تحقيق

المدرس المساعد عبد السلام عزيز الموسوي

مقدمة التحقيق:

الحمد لله ربّ العالمين, والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين, واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

وبعد:

لقد جاءت الرسالة الإسلامية لتوضّح للإنسان طريق الحياة, وتبني سلوكه ونشاطه ومواقفه على أساس الأخلاق والقيم الإسلامية, فعلياً معرفة ما هو علم الأخلاق؟

علم الأخلاق: (هو الفن الباحث عن الملكات الإنسانية المتعلقة بقواه النباتية والحيوانية والإنسانية, وتميّز الفضائل منها من الرذائل ليكتمل الإنسان بالتحلي والاتصاف بها سعادته العلمية, فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثناء الجميل من المجتمع الإنساني)^(١).

وأنّ مهمّة علم الأخلاق هي: (التمييز بين الصالح والطالح من هذه الملكات ليستكمل الإنسان بالصالح منها سعادته العلمية والعملية)^(١).

وأنّ التعرف على قوى الإنسان أمر مهم من أجل الوقوف على تعريف علم الأخلاق بصورة جيّدة.

وهذه الرسالة الأخلاقية التي بين أيدينا (أخلاق المولى محمد مؤمن), للشيخ

محمد بن عبد الغفور، وهو أحد أعلام الإمامية، ومما يؤسف أن كتب التراجم لم تُبين حياة الشيخ محمد بن عبد الغفور بالشكل المفصل إلا ما ندر، وكذلك لم نعثر على مصدر يذكر ولادته وأساتذته ومشايخه وكذلك تلامذته.

المؤلف

اسمه ونسبه:

هو محمد بن عبد الغفور بن مرتضى بن محمود الملقب بـ(مؤمن)، وهو ابن أخي المحقق الفيض الكاشاني وتلميذه^(١).

نشأته العلمية:

الشيخ محمد بن عبد الغفور هو ابن أخي المحقق الفيض الكاشاني وتلميذه، ولقب بـ(مؤمن)، وفاضل عالم، فقيه إمامي، محدث زاهد، أخذ العلوم عن والده وعمه محمد محسن المعروف بالفيز وري عنهما.

وكان صاحب الترجمة من بلدت (أشرف) وتسمى اليوم (بهشهر) من بلاد (مازندران)، ومن المشاهير علماء عصره، وقد قرأ على عمه المولى محسن وعنه أخذ صاحب (الروضات).

وكما أن صاحب الترجمة قابل وصحّ نسخة من كتاب من لا يحضره الفقيه، وأتم ذلك في يوم الاثنين ١٦ ربيع الآخر سنة (١٠٩٢هـ)^(٢).

مؤلفاته:

له مؤلفات منها:

١ - (أصول الفقه)^(٣).

٢- وهذه الرسالة التي بين أيدينا وهي (أخلاق المولى محمد مؤمن)^(٤).

ما قيل في حقه:

- ١- قال الشيخ آغا بزرك الطهراني (رحمه الله): (عمّه الآخر المسمّى بالمولى محمد مؤمن الكاشاني، ابن مرتضى بن محمود أخو المحدث الفيض، من تلاميذ البيهقي والراوي عنه وهو والد الشاه مرتضى)^(٥).
- ٢- قال صاحب موسوعة طبقات الفقهاء: (الشيخ محمد فاضل عالم، فقيه إمامي، محدث زاهد، اخذ العلوم عن والده وعمّه محمد محسن المعروف بالفيض)^(٦).

وفاته:

لم نعثر على تاريخ وفاته كان حياً (١١٠٧ - ١١١٩ هـ)^(٧).

المؤلف

إنّ موضوع هذه الرسالة في الأخلاق، وهي من المسائل المهمّة في علم الأخلاق. فالمؤلف قد قام ببيان هذا الموضوع بشكل مفصّل، وذكر في هذه الرسالة عدّة أمور:

١- معنى الخلق وتهذيبه.

٢- ترسيخ الأخلاق في النفس.

٣- مهلكات النفس.

٤- آفات اللسان.

٥- الرياء.

٦- التكبر.

٧- العجب.

٨- معرفة الدنيا والآخرة.

٩- الغرور.

١٠- الغضب.

النسخة المعتمدة:

لهذه الرسالة نسخة واحدة، ضمن مجموعة رسائل، وذكرها الشيخ الطهراني في الذريعة حيث قال: (رأيت النسخة المكتوبة سنة ١٢٣٩ في خزانة كتب سيّدنا المجدّد آية الله الشيرازي المتوفى سنة ١٣١٢ هـ)^(٨).

أما مواصفات النسخة: فهي تقع في ٢٣ صفحة، وعدد الأسطر: (١٦ - ١٨ سطر).

منهج التحقيق:

١. تنضيد الرسالة, وقمنا بمقابلة المنضد مع الأصل.
٢. تقطيعها وضبطها وتنسيق فقراتها.
٣. تصحيح الكلمات وكتابتها وفق الأساليب الحديثة.
٤. كل ما بين المعقوفين فهو من عندنا.
٥. تخريج الآيات القرآنية والأحاديث والأقوال.

[النص المحقق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه الإعانة والتدبير, الحمد لله خالق النفس وقواها, والصلاة والسلام على أفضل من بعثه لإكمال النفوس وتهذيب أخلاقها, وعلى أوصيائه المعصومين الكاملين النفوس في جميع أوصافها.

وبعد:

هذه رسالة في بيان الأخلاق, وتهذيبها على سبيل الإيجاز, ألّفها محمد بن عبد الغفور الملقّب بمؤمن, عفا الله عنهما وهي مرتّبة على فصول:

[معنى الخلق]

فصل: اعلم أنّ الخلق: (عبارة عن هيئة راسخة في النفوس يصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية, فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً, سمّيت الهيئة خُلُقاً حسناً.

وإن كان الصادر منها أفعال قبيحة سمّيت خُلُقًا سيئًا, وإِنَّمَا شرطنا الرسوخ^(٩)؛ لأنَّ مَنْ يصدر عنه بذل المال مثلاً: على النذور, ولحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء, ما لم يثبُت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ.

وإِنَّمَا شرطنا السهولة وعدم الروية؛ لأنَّ من تكلف بذل المال لا يقال خُلُقُه السخاء, وليس عبارة عن الفعل, فربَّ شخص خلقه السخاء ولا يبذل, إمَّا لفقد المال أو لمانع آخر, وربما يكون خلقه البخل, وهو يبذل لباعث أو رياء.

فصل: فلا بدّ في الخلق الحسن من قوّة العلم, وقوّة الغضب, وقوّة الشهوة,

وقوة العدل, بين هذه القوى الثلاث.

أما قوة العلم: فحسنها وصلاحها في أن يصير بحيث يسهل لها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال, وبين الحق والباطل في الاعتقادات, وبين الجميل والقبيح في الأفعال, فإذا تحصلت هذه القوة حصلت منها ثمرة الحكمة, والحكمة رأس الأخلاق الحسنة.

وأما قوة الغضب والشهوة: فحسنهما في أن يقتصر انقباضهما وانبساطهما على حدّ ما تقتضيه الحكمة والدين.

وأما قوة العدل: فهي ضبط قوة الغضب, والشهوة تحت إشارة العقل^(١٠) والشرع. وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة.

وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة, فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة سمّي ذلك تهوراً^(١١), وإن مالت إلى الضعف سمّي جبناً وخوراً^(١٢). وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة سمّي شرّها, وإن مالت إلى النقصان سمّي خموداً.

والمحمود: هو الوسط وهو العدل, والطرفان رذيلتان مذمومتان.

والعدل إذا فات فليس له طرفان زيادة و نقصان, بل له ضدّ واحد وهو الجور.

وأما الحكمة: فيسمّى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبّا وجريزة^(١٣), ويسمّى تفريطها بلها, والوسط هو الذي يختصّ باسم الحكمة.

فإذا أمّهات الأخلاق الحسنة الجميلة وأصولها أربعة: الحكمة, والشجاعة,

والعفة, والعدل)^(١٤).

فصل: القوّة العلميّة: من القوّة المدركة, والقوّة الغضبيّة, والشهويّة: من القوّة الباعثة للحركة الإراديّة, والقوّة الباعثة: هي التشوقيّة المذعنة لملكات الخيال, أو الوهم, أو العقل العمليّ, بتوسّط الخيال الوهم, فيعمل الإدراك لتلك المدركات الخياليّة أو غيرها, إلى أن يثبت إلى طلب أو هرب بحسب السوانح, فهي إمّا شهويّة باعثة على جلب الضرورة أو النافع طلبًا للذة.

وأما عصبية حاملة على دفع وهرب من الضار طلبًا للانتقام, ويتخذها قوّة مثبتة في الأعصاب, والعضلات من شأنها تشنّج العضلات بجذب الأوتار والرباطات, أو ارخائها وتمديدتها, فلا تحركات الاختيارية مساوي مترتبة أبعدها عن عالم الحركات, والمادّة الخيال والوهم, أو ما فوقهما, ثمّ القوّة الشوقيّة وما فوقها, وقيل الفاعل قوّة أخرى يسمّى بالإرادة والكرهية^(١٥).

[ترسيخ الأخلاق في النفس]

فصل: الأخلاق (إنّما يترسّخ في النفس بتكرير الأعمال, وإنّما يصدر الأفعال عن القلب بتوسّط الجوارح, وكلّ جارحة تصلح لأن تصدر منه الأعمال الحسنة الجالية الأخلاق الجميلة, وأن يصدر منه الأعمال القبيحة المورثة للأخلاق السيئة, فلا بدّ من مراعاة القلب والجوارح بصرفها إلى الخيرات, ومنعها من الشرور والآفات)^(١٦).

[مهلكات النفس]

فصل: أعظم المهلكات للنفس شهوة البطن, والفرج, واللسان, أمّا شهوة البطن, (فالبدن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدوية, إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات, ثمّ يتبع شهوة المطعم والمنكح شدة الرغبة في المال والجاه, الذين هما الوسيلة إلى التوسّع في المطعومات, والمنكوحات, ثمّ يتبع استكثار المال, والجاه أنواع الرعونات, وضروب المناقشات والمحاسدات.

ثمّ يتولّد من ذلك الرياء, وغائلة التفاخر, والتكاثّر, والكبرياء, ثمّ يتداعى ذلك إلى الحقد والعداوة والبغضاء, ثمّ يفضي ذلك صاحبه إلى اقتحام البغي, والمنكر, والفحشاء.

وكلّ ذلك ثمرة أعمال المجدّة, وما يتولّد من البطن المشبع والامتلاء, ولو ذلّل العبد نفسه بالجوع, وضيق مجاري الشيطان, لأذعنت لطاعة الله, ولم يسلك سبيل البطر والطغيان, ولم ينجّر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا, وإيثار العاجلة على العقبى)^(١٧).

[شهوة البطن]

(وقد علمت أنّ المقصد الأقصى في جميع الأحوال والأخلاق الوسط, فالأفضل بالإضافة إلى المطيع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحسّ بثقل المعدة, ولا يحسّ بألم الجوع, بل ينسى بطنه ولا يؤثر فيه أصلاً.

فإنّ مقصود الأكل بقاء الحياة، وقوّة العبادة، وتحصيل المعرفة، وثقل الطعام يمنع العبادة والمعرفة.

وألم الجوع أيضاً يشغل القلب، ويمنع منهما فالمقصود أن يأكل أكلاً معتدلاً، بحيث لا يبقى للأكل فيه أثر ليكون متشبّهاً بالملائكة؛ فإنّهم مقدّسون من ثقل وألم الجوع^(١٨)، والقوام فيه أن لا يأكل طعاماً حتّى يشتهيّه، ويرفع يده عنه وهو يشتهيّه.

[شهوة الفرج]

فصل: (وأما شهوة الفرج فإنّما سلّطت على الإنسان؛ لبقاء النسل ودوام الوجود؛ ولأن يدرك الإنسان لذّته فيقيس بها لذّات الآخرة؛ لأنّ لذّة الوقاع لو

دامت لكانت أقوى لذات الأجساد.

كما أنّ ألم النار أعظم الآلام الجسد فهذه فاندتها، ولكن فيها من الآفة ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط، ولم تقهر، ولم تردّ إلى الاعتدال فإنّ لها أيضاً افراطاً، وتفريطاً.

إفراطها بالقهر العقل حتّى يصرف همّة الرجل إلى التمتع بالنساء، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة، أو يقهر الدين حتّى ينجّر إلى اقتحام الفواحش، والعشق البهيج، وتفريط هذه الشهوة إمّا بالعفّة الخارجة عن الاعتدال، أو بالضعف عن امتناع المنكوحه، وهو أيضاً مذموم، وإتّما المحمود أن تكون معتدلة ومطبعة للعقل والشرع، ومتى أفرطت ليكسرهما بالجوع والنكاح^(١٩).

[اللسان]

فصل: (أمّا اللسان فإنّه من نعم الله العظيمة ولطائفه الغريبة، إذ لا يتبيّن الإيمان والكفر إلّا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة، والطغيان، ثمّ كلّ ما يتناول العلم، والظنّ، والتخيّل، والوهم يُعبّر عن اللسان بحقّ أو باطل.

فهذه خاصيّة عامّة لا توجد في سائر الأعضاء، فإنّ العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، وكذلك سائر القوى.

واللسان يعبّر عن جميع الموجودات المعلومة، والموهومة، فله في الخير مجال واسع، وفي الشرّ كذلك، فمن أطلقه سلك به الشيطان في كلّ ميدان ولا ينجي من شرّ اللسان إلّا أن يقيّد بلجام الشرع، فلا يطلق إلّا فيما ينفع في الدنيا والآخرة.

ويكفّه عن ما يخشى غاياته في عاجله وآجله، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان؛ فإنّه لا تعب في تحريكه ولا مؤنة في إطلاقه^(٢٠).

[آفات اللسان]

فصل: (آفات اللسان كثيرة منها: الخطأ، والكذب، والغيبة الغير المأذون فيهما، وخلف الوعد، والنميمة، والرياء، والنفاق، والفسق، والزيادة، والنقصان، وابداء الخلق، وهتك العورة، وإفشاء السرّ، والسخرية، والاستهزاء، وغير ذلك.

وهي سبّاقة إلى اللسان لا يتقل عليه، ولها حلاوة في القلب، وعليها بواعث من الطبع، ومن الشيطان، فالحائض فيها يقدر على أن يلزم اللسان فيطلقه بما يجب، وبلغه عمّا لا يجب، فإنّ ذلك من غوامض العلم، وفي الخوض خطر، وفي الصمت نجاة^(٢١).

[الغضب]

فصل: (اعلم أنّ الغضب شعلة نار اقتبست من **إِنَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ** ^(٢٢) إلّا أنّها لا تطلّع إلّا على الأفئدة، وأنّها لمسكنة في الفؤاد إسكان الجمر تحت الرماد، يستخرجها حميّة الدين من قلوب المؤمنين أو حميّة الجاهليّة، والكبر من قلوب الجبارين.

ومن نتائج هذا الغضب الخفة والحسد, وبهما هلك من هلك والناس في هذه القوة على درجات ثلاثة: التفريط, والإفراط, والاعتدال.

أما [التفريط]: فيفقد هذه القوة أو يضعفها, وذلك مذموم وهو الذي يقال فيه: لا حمية له, وهو ناقص جداً.

ومن ثمراته عدم الغيرة على الحرم, واحتمال الذل من الأخصاء والسكوت عند مشاهدة المنكرات.

وأما الإفراط: فهو أن يقلب هذه الصفة حتى يخرج عن سياسة العقل والدين وطاعتها, فلا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكر, ولا اختيار.

ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغيير اللون, وشدة الرعدة في الأطراف, وخروج الأفعال عن النظام, واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق, ويحمر الأهداق, ويستحيل الخفة, ولو روي الغضبان حال غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياءً من قبح صورته, وقبح باطنه أعظم.

وأما أثره في اللسان فانطلاقه يقبح الكلام, والشتم.

وأما أثره على الأعضاء فالضرب, والتحريق, والقتل, والجرح عند التمكّن, وعدم المبالاة.

فإن هرب منه المغضوب عليه وعجز عن التشقّي يرجع الغضب على صاحبه؛ فيحرق ثوب نفسه, ويلطم وجهه, وقد يعدو عدو السكران, والمدهوش.

وربّما يعتريه شبه الغشبية, وربّما يضرب الحيوانات والجمادات, فيضرب القصعة^(٢٣) على الأرض, وربّما يتعاطى أفعال المجانين, فيشتم البهيمة, والجمادات ويخاطبهما كأنه يخاطب عاقلاً.

وأما أثره في القلب فالحدق, والحسد, واطهار السوء, والشماتة, والحزن في السرور, والعزم على افشاء السرّ, وهتك الاستار, وغير ذلك من القبائح.

فهذه ثمرة الغضب المفرط, وينبغي لصاحبه أن يعالج نفسه عن سورة الغضب, ويقف على الوسط بين الطرفين, فإن عجز فليطلب القرب من الوسط^(٢٤).

[علاج الغضب]

فصل: (قد ثبت أنّ علاج كلّ علّة بحسم مادّتها وإزالة أسبابها, والسبب المهيج للغضب: هي الزهو^(٢٥), والعجب, والفخر, والهزل, والهزو, والذلّ, والتعيير, والمضارة, والغدر, والحرص على فضول المادّة, والجاه.

وهي بأجمعها أخلاق رديّة, ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب, فلا بد من إزالتها بأضدادها.

فينبغي أن يميت الزهو بالتواضع, والعجب بالمعرفة نفسك, والفخر بمعرفة أنه من الرذائل, وإتّما الفخر بالفضائل.

وأما الهزل فيزيله بالجّد في طلب الفضائل.

وأما الهزاء فيزيله بالتكّرّم عن ابداء الناس, وبصيانة النفس عن أن تستهزأ بك.

وأما التعبير فبالحذر عن قول القبيح.

وأما شدّة الحرص فبالقناعة, وكلّ خلق من هذه الأخلاق يفتقر إلى خلاصها إلى رياضة النفس, وتحمل المشقّة, وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها ليرغب النفس عنها^(٢٦).

[من نتائج الغضب الحقد]

فصل: الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التّشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً.

ومعنى الحقد: أن يلزم قلبه استنقاله, والبغضة له والنفار عنه, وأن يدوم إلى ذلك^(٢٧).

والحقد يثمر أموراً:

منها: الحسد: وهو أن يحمل الحقد على أن يتمّى زوال النعمة عنه^(٢٨), فيغتّم بنعمته أن أصابها, ويسرّ بمصائبه إن نزلت به.

ومنها: أن يريد على اضمّار الحسد في الباطن, فيشتم بما يصيبه من البلاء.

ومنها: أن يهجره وينقطع عنه.

ومنها: أن يتكلّم فيه بما لا يحلّ من الكذب, وغيبة وغيرهما.

ومنها: أن يحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

ومنها: إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

ومنها: أن يمنعه عن حقّه من صلة رحم, وقضاء دين, أو ردّ مظلمة وكلّ ذلك حرام^(٢٩).

ومعنى الحسد: (كراهة النعمة على أنّ المحسود, وحبّ زوالها^(٣٠)).

فإن يحبّ زوالها منه ولا يكره دوامها عليه, ولكن يشتهي لتقسّم مثلها يسمّى غبطة, وقد يسمّى منافسة^(٣١), والغبطة إن كانت في الدنيا فمباح, وإن كانت في الدين فمندوب إليها^(٣٢).

(ولمّن اشتدّ حرصه على الجاه, وأحبّ الصيت في المعاملة فإنّه يحسد غيره, ومنشأ جميع ذلك حبّ الدنيا؛ فإنّ الدنيا تُضيق على المتزاحمين.

وأما الآخرة فلا ضيق فيها، ونعمة الآخرة وهو العلم، والفضائل لا يضيق فيها؛ لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعرفه الف الف عالم^(٣٣).

[الرياء]

فصل: اعلم إن الرياء بالعبادة حرام، و صاحبه ممقوت عند الله، وهو أن يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله، إنما يطلب تزكية الناس، ويشتهي أن يسمع به الناس.

ولا بأس بالسرور إذا كان قصده اخفاء الله، والطاعة، والإخلاص لله.

ولكن لما اطلع الله عليه الخلق علم أنّ الله أطلعهم عليه، وأظهر الجميل من حاله فيستدلّ به على حُسن صنع الله به، ونظره له والطفه به، فإتته يستر الطاعة والمعصية، ثمّ الله يستر عليه المعصية، ويظهر الطاعة فيكون فرحه بجميل نظر الله [له] لا بحمد الناس، وقيام المنزلة في قلوبهم^(٣٤).

(وكذا إذا ظنّ رغبة المطلعين على الاقتداء في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما ظهر آخرًا، وأجر السرّ بما قصده أو لا، ومن اقتدى به في طاعة، فله أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

وكذا إذا فرح بطاعتهم لله في مدحتهم، وحبّهم للمطيع، وبميل قلوبهم إلى الطاعة.

وكذا الكلام في المعاصي، لا لأن يعتقد فيه الورع، بل للتجافي عن الهتك، أو لأنّ الستر مأمور به ويعرف بكرهه ظهورها عن الغير، أو لأنّه يتألّم بالذمّ فهو مباح لكونه جبلياً، أو لأنّ الناس شهداؤه كما ورد، أو لأنّ الذمّ يصير عاصياً ويعرف بتسوية ذمّه وذم غيره، أو لخوف أن يقصد لسوء، أو للحياة فهو كرم الطبع كما ورد (الحياء كلّه خير والحياء شعبة من الإيمان، أوجده محبة الناس له؛ ليعلم محبة الله له، فإن من أحبّه الله جعل الله محبوباً في قلوب الناس)^(٣٥).

[الرياء في العبادة]

فصل: (الرياء بالعبادات إنّما ينشأ من حبّ لذة الحمد، والفرار من المذمة، والطمع لما في أيدي الناس، فمهما عرف العبد مضرّة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق، وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرّض له من العقاب، والمقت، والخزي، وقابل ما يحصل له من العباد والتزيّن لهم في الدنيا بما يفوته من الآخرة، وما يهبط عليه من ثواب الأعمال لترك الرياء لا محالة مع أنّ العمل الواحد ربّما كان ملاحظة القلوب فإنّ (رضا الناس غاية لا تترك)^(٣٦) وكلّ ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعض، ومن طلب مرضاة في سخط الله سخط الله عليه، وأسخطهم أيضاً عليه.

ثمّ أي عرض لهم في مدحهم وإيثار ذمّ الله لأجل حمدهم، ولا يزيدهم حمدهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره في القيامة.

وإنما الطمع بما في أيديهم فبأن يعلم إن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وإن الطمع من الخلق لم يخل عن الذل، وإن وصل إلى المراد لم يخل من المنّة والمهانة، فإذا قرّر في قلبه هذه الأمور وضررها فترت رغبته، وأقبل على الله قلبه.

ثم ينبغي أن يعود نفسه في إخفاء العبادات كما يخفي الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله وإطلاعه على عبادته [ولا] تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به^(٣٧) وهذا الرياء حرام في العبادات.

[الرياء بغير العبادات]

(فأما الرياء بغير العبادات فقد يكون مستحباً، وقد يكون واجباً إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه، وأن لا يفعل ما يعاب عليه فلا يليق بذوي المروّات أن يرتكبوا الأمور الخسيسة ما يعيشهم عند مشاهدة الناس، وإن جاز لهم في الخلوّة، إلا أنّ ذلك يختلف باختلاف الأزمنة في البلاد، والأشخاص من العباد، فلا بدّ من مراعاة ذلك)^(٣٨).

[التكبر]

فصل: الكبر من نتائج العجب، والتكبير ينشأ من الحقد، والحسد، والرياء، والكبر، أن (يغضب^(٣٩) الناس ويسقّه الحق)^(٤٠) وستر سفه الحق بأن (يجهل الحقّ ويطعن على أهله)^(٤١) والغضب بتحقير الناس والتجبر عليهم (من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله)^(٤٢) لكن التكبر على المتكبرين عبادة، كما أنّ التواضع للمتواضعين عبادة.

ثمّ التكبر (قد يكون على الله كما كان لفرعون ونمرود وغيرهما، وقد يكون

على رسله كما كان لمن كان يقول: **إِنَّهُوَ لَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ** (٤٣) وقد يكون على سائر الناس بأن يستعظم نفسه ويستصغر غيره، فإذا سمع الحق من عبد من عباد الله استتشف من قبوله واشمأز بجده، كما يكون لأكثر المناظرين في العلوم للغلبة والاقتران، ثم قد يكون بالعلم، وقد يكون بالعبادة والورع، وقد يكون بالنسب والحسب، والجمال والمال، والقوة في كثرة الأنصار والأتباع.

والتكبر بالعلم له سببان: أحدهما أن يكون اشتغاله بما سمى علماً وليس بعلم.

والثاني: أن يخوض في العلم وهو خبيث النفس، فإذا خاض في العلم أي علم كان صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره.

وعلاجه أن يعلم أن الكبر لا يليق، إلا بالله وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله فلا بد أن يكلف نفسه بالتواضع، وإن يعلم أن حجة الله على العالم أكد.

وأما العابد الورع فعليه أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه لفضيلة العلم، وكما يمكن أن يكون العلم حجة على العالون [العالم]، يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه.

وأن يعلم أن المدار على الخاتمة فعليه أن رأى من هو شر منه، أن يقول لعل هذا ينجي وأهلك أنا، ومن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوي قلبه بمعرفة أمرين:

أحدهما: إن هذا جهل من حيث تعززه بكمال غيره، فالتكبر بالنسبة إن كان خسيساً في ذاته فمن أين يجيز خسته كمال غيره.

والثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي فيعرف أباه وجدّه فإن أباه نطفة قدرة، وجدّه البعيد تراب ذليل.

والكبر بالجميل دواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ليرى من الفضائح ما يكدر عليه التعزّز بجماله فإنه حمالي الأقدار، ووعاء المخاط والبصاق والوسخ والدم والصديد.

والتكبر بالقوة يمنعه من ذلك أن يعلم ما يسلم الله عليه من الأمراض والعلل، وأنه لو توجع عرق من بدنه لصار أعجز من كلّ عاجز، ولو دخلت في أنفه بقّة أو نملة في أذنه لقتلته.

والتكبر بالغنى وكثرة المال والأتباع فذلك تكبر لمعنى خارج من ذات الإنسان، وهذا أقبح من أنواع التكبر فأف لشرف يسبقه اليهود وأف لشرف يسرقه السارق والتكبر بتمكّن السلطان بناء أمره على قلب هو أشدّ غليظاً من القدر فإن تعسّر عليه كان أدلّ الخلق.

ثم اعلم أنه لا شفاء من التكبر إلا باستئصال أصله وقلع شجرته من مغرسه في القلب، وذلك بأن يعرف ربّه وأنه لا يليق العظمة والكبريات إلا به، وأن يعرف نفسه

حقّ المعرفة ليعلم أنّ ذاته أدلّ من كلّ دليل, وأقلّ من كلّ قليل, ولا يليق به إلاّ التواضع والمسكنة^(٤٤).

والتواضع أن يعطي الناس أن تحبّ ما تعطاه, والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع, والخشية والحياء وإنهنّ لا يأتين إلاّ منها, ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلاّ للمتواضع في ذات الله, وأصل التواضع عن اجلال الله وهيبته وعظمته.

[العُجْب]

فصل: (العُجْب: هو اعظام النعمة والركون إليها مع نسيان اضافتها إلى المنعم, فإن كان خائفاً على زوالها مشفقاً على تكدرها, أو يكون فرحها بها من حيث إنّها من الله من دون اضافتها إلى نفسه فليس بعجب, فإنّ انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه إنّ له عند الله حقاً, وأنّه منه بيمان واستبعد أن يجري عليه مكروه سمّي ادلالاً بالعمل فكأنّه يرى لنفسه على الله دالّة, وكذلك قد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه, ويمنّ عليه فيكون معجباً فإنّ استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات واستبعد بخلقه عن قضاء حقوقه وكان مدلاً عليه.

وأفات العجب كثيرة:

منها: أنّه يدعو إلى التكبر كما أشرنا إليه.

ومنها: أنّه يدعو إلى نسيان الذنوب, وما يتذكّر منها فيستصغرها فلا يجتهد في تداركها ويظنّ أنّها مغفورة, وأمّا العبادات فيستعظمها ويمنّ على الله بفعالها, وينسى نعمة الله عليها بالتوفيق لها.

ومنها: إنّ العجب يغترّ بنفسه, وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه, ويظنّ أنّه عبد الله بيمان وإنّ له على الله حقاً بأعماله التي هي نعم الله عليه.

ويحرجه العجب أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكّيها فإن عجب برأيه وعلمه وعقله منعه من الاستفادة ومن الاستشارة ويستتكف عن سؤال من هو أعلم منه .

وربّما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخاطر غيره فيصّرّ عليه ولا يسمع نصح ناصح. بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال, ومن أعظم آفاته أنّ يغترّ في السعي بظنّه أنّه قد فاز واستغنى وهو الهلاك الصريح^(٤٥).

[علاج العجب]

فصل: (اعلم أنّ الإنسان قد يعجب بالأسباب التي بها يتكبر, وعلاجه فيما ذكرناه في الكبر, وقد يعجب بما لا يتكبر كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزيّن له بجهالة جميع أهل البدع والضلال, إنّما أصرّوا عليها لعجبهم بأرائهم, وهو ما يسوق إليه الهوى, والشبهة مع ظنّ كونه حقاً.

وعلاج هذا أشدّ من غيره؛ لأنّ صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطائه، ولو عرفه لتركه ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، والعارف يقدر على أن يبيّن للجاهل جهله، ويزيل عنه إلّا إذا كان معجباً برأيه وجهله فأثّه يصغي إلى العارف ويثمه.

وإنّما علاجه في الجملة أن يكون متّهماً لرأيه أبداً لا يعتزّ به إلّا أن يشهد له من كتاب الله أو سنّة نبيّه، أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلّة، ولن يعرف الإنسان أدلّة شرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها إلّا بقريحة تامّة وعقل ثابت، وتشهير في الطلب وممارسة للكتاب والسنّة، ومجالسة للعلماء طول العمر ومدارس العلوم، ومع ذلك فلا يأمن الغلط عليه في بعض الأمور.

والصواب لمن ليس له قريحة أن لا يخوض في المذاهب، ولا يصغى إليها ولا يسمعها، ولكن يعتقد أنّ الله واحد لا شريك له، وأنّه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير وأنّ رسوله صادق فيما أخبر به ويتّبع أمّة الهدى صلوات الله عليهم من أهل بيت النبيّ، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنّة من غير بحث وتفتيش، ويشغل بالتقوى، واجتناب المعاصي، والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال المرضية.

ثمّ بالجملة لما كان علاج كلّ علّة بمقابلة سببها بضدّه، وعلّة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط^(٤٦).

[معرفة الدنيا والآخرة]

فصل: (اعلم أنّ الدنيا والآخرة عبارة عن حالتين من أحوال القلب والقريب الداني منهما يسمّى دنياً، وهي كلّ ما قبل الموت، والتراخي المتأخّر يسمّى آخره، وهو ما بعد الموت، وكلّ مالك فيه حظّ ونصيب وغرض وشهوة ولذّة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا، إلّا أنّ جميع ما للإنسان إليه ميل وفيه نصيب وحظّ فليس بمذموم.

وذلك لأنّ كلّ ما يصحب الإنسان في الدنّيا وتبقى ثمرته بعد الموت، وهو العلم النافع العمل الصالح فهو في الآخرة في الحقيقة وإنّما يسمّى بالدنيا باعتبار دنوّه، فإنّ العالم قد يأنس بالعلم حتّى يصير ذلك الذّ الأشياء عنده، فيهجر النوم والنكاح والمطعم في لذّته؛ لأنّه أشهى عنده من جميعها فقد صار حظّاً عاجلاً في الدنيا، ولكنّا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم يعد هذا من الدنيا أصلاً بل قلنا أنّ من الآخرة.

وكذلك العابد قد يأنس بعبادته ويستلذّها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه بل نقول أنّ من جملة العمل الصالح الذي هو من الآخرة التعرّض للرزق قال النبيّ: العباد سبعة جزاء أفضلها طلب الحلال^(٤٧)(٤٨).

فصل: نقول: اعلم أنّه لا يبقى مع العبد عند الموت، إلّا ثلاث صفات: صفاء القلب أعني طهارته من الأدناس الدنيويّة، وأنسه بذكر الله، فحبّه لله وصفاء القلب وطهارته، لا تحصل إلّا بالكفّ عن شهوات الدنيا.

والأنس لا يحصل؛ إلا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه.
والحبّ لا يحصل إلا بمعرفة الحقيقة, وهي لا تحصل إلا بدوام الذكر.
وهذه الصفات الثلاثة, هي المنجيات بعد الموت: وهي الباقيات الصالحات.
أما الأنس والحبّ: فهما يوصلان العبد إلى جوار الله, ورحمته, ولقائه, وهذه
السعادة يتعجّل عقيب الموت إلى أن يدخل الجنّة, فيصير القبر روضة من

رياض الجنة.

فكيف لا يكون القبر روضة من رياض الجنة، ولم يكن إلا محبوب واحد، وكانت العوائق تعوقه عن الأُنس بدوام ذكره، ومطالعة جماله فارتفعت العوائق، وأفلت من السجن، وخلقى بينه وبين محبوبه؟!!

وكيف لا يكون محبّ الدنيا عند الموت معدّبًا، ولم يكن له محبوب إلا الدنيا، وقد غصب منه وحيل بينه وبينه، وسدّت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه، وليس الموت عمدًا؛ إنّما هو فراق لمحباب الدنيا، وقدم على الله تعالى؟!!

فإذن سالك طريق الآخرة: وهو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث: وهي الذكر، والفكر، والعمل، الذي يعظّمه عن الدنيا، فيبغض إليه ملاذّها، وكلّ ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن، وصحة البدن لا ينال إلا بالقوة، واللبس، والمسكن، ويحتاج كلّ واحد إلى أسباب.

فالقدر الذي لا بدّ منه من هذه الثلاثة، إذا أخذ العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا، وكانت الدنيا في حقّه مزرعة الآخرة، وأنّ أخذ ذلك في قصد التنعّم، وحظّ النفس صار من أبناء الدنيا الراغبين حظوظها، إلا أنّ الرغبة في حظوظ الدنيا ينقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الله في الآخرة، ويسمّى ذلك حرامًا، وحول بينه وبين الدرجات العلى، ويعرضه لطول الحساب، ويسمّى ذلك حلالًا.

والبصير يعلم أنّ طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة عذاب، فمن نوقش في الحساب عُذّب^(٤٩).

[أعيان الدنيا]

فصل: (فقد ظهر أنّ الدنيا حظّ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه، لا في الآخرة، ويعبّر عنه بالهوى.

ومجامع الهوى خمسة أمور جمعها الله تعالى في قوله: II **أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ** (٥٠) والأعيان التي يحصل منها هذه الأمور الخمسة.

سبعة يجمعها قوله تعالى: II **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** (٥١) وهي أعيان الدنيا، إلا أنّ لها مع العبد علاقتين:

علاقة مع القلب: وهو حبه لها أو انصراف همه لها، حتّى يصير قلبه: كالعبد، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا: كالكبر، والغل، والحسد،

والرياء، والسمعة، وسوء الظن، والمداهنة، وحبّ النساء، وحبّ التكاثر، والتفاخر، فهذه هي الدنيا الباطنة.

وأما الظاهرة: فهي الأعيان المذكورة.

والعلاقة الثانية مع البدن: وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان؛ ليصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهي جملة الصناعات التي الخلق مشغولون بها بحيث نسوا أنفسهم^(٥٢)، وما لهم، ومنقلبهم، ولو عرفوا سبب الحاجة إليها وافتقروا عليها، لم تستغرقهم اشتغال الدنيا، وإنما استغرقهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها، وتابعت الاشغال، واتّصلت بضعها ببعض، وتداعت إلى غير نهاية محدودة، فتأهوا في كثرة الاشتغال، ونسوا مقصودها، وكلّ ما ورد في ذمّ الدنيا يرجع إلى هذا^(٥٣).

[فتن الدنيا]

فصل: (اعلم أنّ فتن الدنيا كثيرة، ولكن الأموال أعظم فتنها، وأعظم فتنة فيها أنّه لا غناء عنها، ثمّ إذا وجدت فلا سلامة منها، فإن فقد حصل عنه الفقر الذي يكاد أن يكون كفرًا^(٥٤))، وإن وجد حصل منه الطغيان.

وبالجملة، فهو لا يخلو من الفوائد، والآفات، وفوائدها من المنجيات، وآفاتها من المهلكات، وتمييز خيرها من شرّها من المعضلات التي لا يقوى عليها، إلا العلماء الراسخون.

ثمّ للفاقد حالتان: القناعة، والحرص.

وللحرص حالتان: الطمع في أيدي الناس، ويشمّر للصناعات مع الناس عن الخلق. وللواجد حالتان: إمساك، وانفاق.

وللمنفق حالتان: تبذير، واقتصاد، وهذه الأمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض منها من المهمّات^(٥٥).

[المال محمود ومذموم]

فصل: (تحقيق القول فيه أنّ المال قد يكون وسيلة إلى مقصود صحيح، وقد يكون وسيلة إلى مقصود فاسد، وهو المقصد الصادّ عن سعادة الأبد، ويسدّ سبيل العلم والعمل، فهو إذن محمود، ومذموم. المحمود بالإضافة إلى المقصود المحمود، ومذموم بالإضافة إلى المقصود المذموم^(٥٦)).

[فوائد المال وآفاته]

فصل: أمّا فوائد المال فهي تنقسم إلى: دنيوية ودينية.

وأما الدنيوية: فلا حاجة إلى ذكرها معرفتها مشتركة بين أصناف الخلق.

وأما الدينية فهي ثلاثة أنواع:

الأول: أنّ ينفعه في نفسه أمّا في عبادة، أو في استعانة على عبادة. والنوع الثاني: ما يُصرف إلى الناس.

وهي أربعة أقسام: الصدقة، والمروة، ووقاية العرض، وأجرة الاستخدام.

أما الصدقة: فلا يخفى ثوابها.

وأما المروة: فنعني بها صرف المال في الأغنياء والأشراف في ضيافة، وهدية، وإعانة، وما يجري مجراه، وممّا يكتسب به صفة السخاء، وهذا لا ريب فيه بعظم الثواب فيه، كما في الأخبار^(٥٧)، وأتة وقاية العرض: فنعني به بذل المال لدفع هجو شعراء، وتلب^(٥٨) السفهاء، وقطع ألسنتهم، ودفع شرّهم، وهذا أيضا مع تنجّز فائدته

الدنيوية من الحظوظ الدينية، قال رسول الله ﷺ: وما وقى المرء به عرضه فهو صدقة^(٥٩).

وأما الاستخدام فهو أمّ الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان التهيئة أسبابه كثيرة لو تولّاها بنفسه لضاعت أوقاته ويتعدّر عليه سبيل الآخرة.

النوع الثالث: ما لا يصرفه الإنسان على شخص معيّن، ولكن يحصل به خير عام، كبناء المساجد، والقناطر، والزباطات، وغيرها من الخيرات المؤبّدة الدارّة بعد الموت المستجابة بركة أدعية الصّالحين، فهذه جملة فوائد المال.

وأما آفاتها فدينيّة ودنيويّة.

أما الدينيّة فتلاثة:

الأول: أنّه يجرّ المعاصي؛ لأنّ العجز عن المعصية ربّما يحول بينه وبين المرء، والمال معيّن على المعاصي.

الثاني: أنّ يجرّ إلى التتعمّ في المباحات، وهذا أقلّ الدرجات).

والثالث: هو الذي لا ينفكّ عنه أحد، وهو أنّه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله، وطلب العلم، والعبادة.

فهذه هي الآفات الدينية سوى ما يناسبه أرباب الأموال من الخوف، والحزن، والغمّ، والهّمّ، والتعب، في دفع الحساد، وحفظ الأموال.

فالفقر محمود، ولكن ينبغي أنّ يكون الفقير قانعاً غير طامع، فإنّ الطمع يجرّ إلى المعاصي، وارتكاب المنكرات الجارفة للمرؤات، وقد جبل الإنسان على الحرص والطمع وقلة القناعة^(٦٠).

[النجاة من غائلة المال]

فصل: (لا نجاة من غائلة المال، إلاّ بالمحافظة على أمور:

الأول: أنّ يعرف مقصود المال حتّى لا يكتسب ولا يحفظ إلاّ قدر حاجته.

والثاني: أن يراعي دخل المال فيجتنب الحرام والشبهة.

والثالث: أن يراعي جهة الخرج ويقتصد في الإنفاق.

والرابع: أن يضع ما اكتسبه من حلّه في حقّه، ولا يضعه في غير حقّه فيأخذ ما يأخذ ليستعين على العبادة، وترك ما يترك زهداً فيه، وإذا فعل ذلك لم يضرّه المال^(٦١).

[الخلاص من الدنيا بالزهد]

فصل: (فقد ظهر أنه لا خلاص من تبعة الدنيا، إلا بالزهد فيها: وهو أن لا يريدها بقلبه، إلا بقدر ضرورة بدنه، ومن ثمرة الزهد السخاء، ومن ثمرة الرغبة في الدنيا البخل).

فالمال إن كان مفقودًا ينبغي أن يكون حال العبد القناعة، وإن كان موجودًا ينبغي أن يكون حالة السخاء.

والامساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الامساك تذيير، وبينهما وسط وهو المحمود، والسخاء والجود عبارة عنه^(٦٢).

[آفة الجاه]

فصل: (اعلم أنّ أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار: وهو آفة عظيمة، وحبّه مذموم بل المحمود الخمول، ألا من شهّره الله لنشر دينه من غير طلب للشهرة، ثمّ اعلم أنّ الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى المال تلك الأعيان المنتفع بها.

ومعنى الجاه: تلك القلوب المطلوب تعظيمها، وطاعتها ليتوسّل باستعمال أربابه في الأعراض، وكما أنّه يكتسب المال بأنواع الصناعات، فكذلك يكتسب القلوب بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف، والاعتقادات. وكلّ من اعتقد القلب فيه وصف من أوصاف الكمال انقاد له بحسب قوّة اعتقاده، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده ولا يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه بل يكفي أن يكون عنده.

وللجاه ثمرات: كالمجدح فإنّ المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعقده فيثني عليه، وكالخدمة، والاعانة، وأنّه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده، وكالإيثار وترك المنازعة، والتعظيم.

ثمّ اعلم أنّ الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتّصف به من الله ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت ليس إلا العلم بالله، وبصفاته، وأفعاله، وحكمته في ملكوت السماء والأرض، وترتيب الدّنيا والآخرة، وما يتعلّق به.

الحرّيّة: أعني الخلاص عن أسر الشهوات، وغموم الدنيا، والاستلاء عليها بالقهر تشبّهًا بالملائكة^(٦٣).

وأما ما له منفعة في الإعانة على ذلك، كمعرفة لغة العرب، وتفسير القرآن، والحديث، والفقه، ومعرفة طريق تزكية النفس؛ لقبول الهداية إلى معرفة الله، فهو من حيث أنّه وسيلة إلى معرفة الله، وإلى تحصيل الحرّيّة، فمما لا بدّ منه بالعرض^(٦٤).

فصل: (اعلم أنّه كما لا بدّ من أدنى مال لضرورة المطعم والملبس، فلا بدّ من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق).

والإنسان كما لا يستغنى عن طعام فيجوز [أن يحب] الطعام، والمال الذي يباع به الطعام فكذلك لا يخلو عن حاجة [إلى خادم] يخدمه، ورفيق يعينه، وسلطان يحرسه، ويدفع عنه الظلم الأشرار.

فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحلّ ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم؛ لأن حبه لا يكون له من المحلّ في قلب رفيقه ما يحسن به مرافقته، ومعاونته ليس بمذموم؛ لأن يكون في قلب أستاذه من المحلّ ما يحسن به إرشاده، وتعلّمه، والعناية به ليس بمذموم؛ لأن يكون له من المحلّ في قلب سلطان ما يحثّه ذلك على دفع الشرّ عنه.

فإنّ الجاه وسيلة إلى الأغراض، كالمال فلا فرق بينهما فلا أفراط. وحبّ الجاه: إن من غلب على قلبه حبّ الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوقاً بالتودّد إليهم والمرأة لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما عظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق الفساد، ويجرّ ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات، وأنّ اقتحام المحظورات للتوصّل بها إلى اقتناص القلوب.

وعلاجه أن يعلم أنّ السبب الذي لأجله حبّ الجاه، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس، وعلى قلوبهم إنّ صفى وسلم فأخره الموت، وليست من الباقيات الصالحات.

فهذا ممّا لا ينبغي أن يترك الدّين الذي هو الحياة الأبدي لأجله، ومن فهم الكمال الحقيقي صغر الجاه في عينه، وأن يعلم أنّ كلّ ذي جاه محسود، ومقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه محترز من أن يتغيّر منزلته في القلوب.

والاشتغال بمراعاة القلوب، وحفظ الجاه، ودفع كيد الحساد، ومنع أذى الأعداء اشتغال عن الله، وتعرّض لمقتته في العاجل والأجل، وكلّ ذلك غموم عاجلة للذة الجاه، وعلاجه من حيث العمل فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بالأنس، بالخمول، والفنّاعة، والقبول من الخلق، والاعتزال عن الناس^(٦٥).

[حبّ المدح والثناء]

فصل: (اعلم أنّ حبّ المدح والثناء له أسباب:

الأوّل: وهو الأقوى، شعور النفس بالكمال، فإنّ النفس مهما شعرت بالكمال اهتزت وتلذذت؛ والمدح يشعر النفس [الممدوح بكمالها]، وتعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير خبير لا يجازف في القول، ولهذه العلة يبغض الذمّ ويكره؛ لأنّه يشعر النقصان [في نفسه].

[الثاني]: إنّ المدح يدلّ على أنّ قلب المادح ملك الممدوح، وأنّه يريد له [ومعتقد] فيه، ومسخر تحت مشيئته، وبهذه العلة لما صدر ممّن تتسع قدرته كانت اللذة بهذه الصفة أيضاً يكره الذمّ ويتألّم به.

والثالث: أنّ ثناء المثني إذ يقع على الملاّ سبب لاصطياد كلّ من يسمعه.

والرابع: أنّ المدح يدلّ على حشمة الممدوح، واضطرار المادح إلى اطلاق اللسان بالثناء عليه، أمّا عن طوع، وأمّا عن قهر فإنّ الحشمة أيضاً

لذينة لما فيها من القهر والقدرة)^(٦٦).

[١٣٠] [ثم حبّ المدح كحبّ الجاه حرمة و إباحة, ونفعًا و ضررًا.]

وعلاجه علاج حبّ الجاه, وعلمه بأنّ الصفة الممدوح بها, إن فقدت [فاستهزاء], وأن وجدت فالذنيوية كمال وهمي, والدّينية موقوفة على الخاتمة.

وعلاج كراهة الذّم العلم بأنّ الصّفة المذموم بها إن وجدت [فتنصير] للعيوب, وفيه الفرح والشغل بالإزالة, وإن فقدت فكفارة للذنوب, وفيه الشكر لله, والترحمّ على الذامّ حيث أهلك نفسه.

هوامش البحث

- (١) ينظر: الميزان: ٣٦٨/١ .
- (١) ينظر: التربية الروحية: ٦٥.
- (١) - ينظر: الذريعة: ٣٨٨/٢, موسوعة طبقات الفقهاء: ٧٤٨/١٣.
- (٢) ينظر: تراجم الرجال: ٧٦٧/٢.
- (٣) ينظر: الذريعة: ٢١٠/٢.
- (٤) ينظر: الذريعة: ٣٨٠-٣٧٩/١.
- (٥) ينظر: طبقات أعلام الشيعة: ٧٥٢-٧٥٣ / ٩.
- (٦) ينظر: موسوعة طبقات الفقهاء: ٧٤٨/١٣.
- (٧) ينظر: طبقات اعلام الشيعة: ٧٥٢ / ٩.
- (٨) ينظر: الذريعة: ٣٨٠-٣٧٩/١.
- (٩) الرسوخ: (بمعنى رسخ الشيء ثبت في موضعه), (ينظر: لسان العرب: ١٨-١٩).
- (١٠) (فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير, وقوة العقل هي القدرة, ومنزلتها منزلة المنفذ الممضي لإشارة العقل), (المحجة البيضاء: ٩٦ / ٥).
- (١١) تهور: أي الهلاك والسقوط, (ينظر: لسان العرب: ٢٦٨/٥).
- (١٢) الخور: أي الضعف, (ينظر: لسان العرب: ٤٩٣/١).
- (١٣) الحَبّ: أي الخدعة, و الجريزة: حَبِيث مُنْكَر, (ينظر: لسان العرب: ٣٤١/١) .
- (١٤) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق, للفيض الكاشاني: ٥٩- ٦٠.
- (١٥) ينظر: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ١٨٧.
- (١٦) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٦٥.
- (١٧) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٦٦.

- (١٨) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٦٧.
- (١٩) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٦٨.
- (٢٠) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٦٩-٧٠.
- (٢١) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٧١.
- (٢٢) سورة الهمزة: ٦.
- (٢٣) القصعة: لها معاني كثيرة منها جرة الماء, (ينظر: لسان العرب: ٨/٢٧٤).
- (٢٤) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٧٣-٧٦.
- (٢٥) الزهو: هو الكبر والتّيه، والعجب بالنفس, (ينظر: لسان العرب: ١٤ / ٣٦٠)
- (٢٦) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٧٧-٧٨.
- (٢٧) ينظر: إحياء علوم الدين: ٩/١١٧.
- (٢٨) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ١٠/٤٣٤.
- (٢٩) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٧٩.
- (٣٠) ينظر: رسائل الشهيد الثاني: ٣٠٤.
- (٣١) ينظر: كشف الريبة عن أحكام الغيبة: ٥٧.
- (٣٢) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٨١.
- (٣٣) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٨٣.
- (٣٤) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٨٦.
- (٣٥) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٨٧.
- (٣٦) ينظر: الحكمة الخالدة: ١٠٨.
- (٣٧) ينظر الحقائق في محاسن الأخلاق: ٨٧-٨٨.
- (٣٨) ينظر الحقائق في محاسن الأخلاق: ٨٩ .
- (٣٩) في المصدر (يغصص)
- (٤٠) ينظر: المحاسن: ١ / ٦٦.
- (٤١) الكافي: ٢ / ٣١٠ ب: الكبر, ح ٩.
- (٤٢) الكافي: ٢ / ١٢٢ ب: التواضع, ح ٣, وفيه: (خفضه) بدل (وضعه).
- (٤٣) سورة الانعام: ٥٣.
- (٤٤) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٩١-٩٤.
- (٤٥) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٩٦-٩٨.
- (٤٦) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ٩٨-٩٩.
- (٤٧) الكافي: ٥ / ٧٨ ب: الحث على الطلب والتعرض للرزق, ح ٦.
- (٤٨) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١٠١.
- (٤٩) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١٠٢-١٠٤.
- (٥٠) سورة الحديد: ٢٠.
- (٥١) سورة آل عمران: ١٤.

- (٥٢) قال الله تعالى: [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] سورة الحشر: ١٩.
- (٥٣) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١٠٤-١٠٥.
- (٥٤) قال رسول الله: (كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر)، (الكافي: ٢ / ٣٠٧ ب: العصبية/ح ٤).
- (٥٥) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١١٢-١١٣.
- (٥٦) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١١٤.
- (٥٧) روي عن أبي الحسن a يقول: (السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب النار... يقول السخاء شجرة في الجنة أغصانها في الدنيا من تعلق بغصن من أغصانها دخل الجنة)، (عيون أخبار الرضا a: ١٥/٢).
- (٥٨) التلب: اي لومه وعابه، وصرح بالعيب، (لسان العرب: ١ / ٢٤١).
- (٥٩) ينظر: الخلاف: ٣ / ٢٩٤.
- (٦٠) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١١٤-١١٧.
- (٦١) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١١٨-١١٩.
- (٦٢) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١٢٠-١٢٣.
- (٦٣) ينظر: إحياء علوم الدين: ١٠ / ٩٤.
- (٦٤) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١٢٣-١٢٥، ١٢٧.
- (٦٥) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١٢٨-١٣١.
- (٦٦) ينظر: الحقائق في محاسن الأخلاق: ١٢٩-١٣٠.

قائمة المصادر

- ١- التبيان في تفسير القرآن: للشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، (د.ك)، ط١، ١٤٠٩هـ.
- ٢- الخلاف: للشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ط١، ١٤٠٧هـ.
- ٣- الذريعة إلى تصانيف الشيعة: آغا بزرك الطهراني (ت: ١٣٨٩هـ)، الناشر: دار الأضواء بيروت لبنان، ط٣، ١٤٠٣-١٩٨٣ م.
- ٤- رسائل الشهيد الثاني: للشهيد الثاني، الفقيه زين الدين علي الجبعي العاملي (ت: ٩٦٥هـ)، تحقيق: رضا المختاري، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط١، ١٤٢٢هـ.
- ٥- سنن ابن ماجة: للحافظ أبي عبد الله بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- ٦- طبقات أعلام الشيعة: للعلامة الشيخ آغا بزرك الطهراني (ت: ١٣٨٩هـ)، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ.
- ٧- الكافي: للشيخ الكليني، ثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني (ت: ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٦٧ش.
- ٨- كشف الريبة عن أحكام الغيبة: الشهيد الثاني (ت: ٩٦٥هـ)، ط٤، سنة الطبع: يائيز ١٣٧٦ ش، الناشر: انتشارات مرتضوى.
- ٩- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: العلامة الحلي (ت: ٧٢٦هـ)، تحقيق: آية الله حسن زاده الأملي، ط٧، سنة الطبع: ١٤١٧، الناشر: مؤسسة نشر الإسلامي - قم.
- ١٠- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.
- ١١- لسان العرب: لابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت: ٧١١هـ)، نشر: أدب الحوزة، قم، (د.ط)، ١٤٠٥هـ.
- ١٢- المحاسن: أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت: ٢٧٤هـ)، تحقيق: تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، سنة الطبع: ١٣٧٠ - ١٣٣٠ ش، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران.
- ١٣- المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: الفيض الكاشاني (ت: ١٠٩١هـ)، تحقيق: صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، ط٢، الناشر: دفتر انتشارات اسلامی وابسته به جامعه مدرسين حوزة علميه قم.
- ١٤- موسوعة طبقات الفقهاء: اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق (معاصر)، إشراف: العلامة الفقيه جعفر السبحاني، نشر: مؤسسة الإمام الصادق (معاصر)، قم، ط١، ١٤٢٢هـ.